﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ [طه: 1 - 3]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تأكيدُ تيسيرِ القرآنِ الذي نَزلَ لسعادةِ النَّاسِ لا لشقائِهم

لَمَّا ذَكَرَ اللّه تعالى تَيْسيرَ القُرْآنِ بِلِسانِ الرَّسولِ ﷺ، أَيْ: بِلُغَتِه، وكانَ فيما عُلِّلَ به قَوْلُهُ: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾؛ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طه﴾: ذهب جمهورُ المفسِّرين إلى أنَّ ﴿طه﴾ منَ الأحرف المقطَّعةِ، وهو القولُ الأنسبُ والمعتمدُ، وذهبَ الطبريّ إلى أنَّ اللّفظ على جهة النِّداءِ، ومعنى ﴿طه﴾ رجلٌ - في اللّغة الأعجميّةِ - فالتّقديرُ: (يا رجل)، وقيل: هو اسمٌ من أسماء اللّه تعالى، وقيل: اسمٌ من أسماءِ رسولِ اللّه ﷺ، وقيل: أصلُ ﴿طه﴾ طأ، فقُلِبتِ الهمزةُ هاءً، فيكونُ اللّفظُ منَ الوطءِ، أو يكونُ ﴿طه﴾ على القراءة المشهورة بمعنى طأها، أي: طَأْ بقدميك الأرضَ، لِما كان يُعانيه ﷺ بكثرة القيام والصَّلاة؛ إذ كان يراوحُ بين قدمَيه من شدَّة التَّعبِ[2].

2) ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾: يدورُ معنى الكلمةِ على التّعب البدنيِّ المُستدعي لأقصى الطَّاقة، وأصلُ الشَّقاء منَ الشَّاقي وهو حَيْدٌ مِنَ الجَبل طويلٌ لا يُسْتَطاع ارْتِقاؤُه، فالشّقاءُ هو العناءُ والتَّعبُ الشَّديدُ، ومنه قولهم: شقيتُ في كذا، ولا يُعبَّرُ عنِ التَّعب بالشّقاوة إلَّا إذا كان فيه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 309.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 268، والواحدي، التفسير البسيط: 14/ 349، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 5 - 6، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 309.

شدَّةٌ وعناءٌ، والشّقاوةُ خلافُ السَّعادة، وكلُّ شَقاوَةٍ تعبٌ شديدٌ، وليس كلُّ تعبٍ شديدٍ شقاوةً، فالتَّعبُ أعمُّ منَ الشَّقاوة[1].

3) ﴿تَذۡكِرَةً﴾: تارةً يقال، ويرادُ به هيئةٌ للنَّفس بها يمكنُ للإنسان أن يحفظَ ما يَقتنيه منَ المعرفة، وهو كالحفظِ إلَّا أنَّ الحفظَ يقال اعتبارًا بإحرازِه، والذِّكْرُ يقال اعتبارًا باستحضارِه، وتارةً يقال لحضور الشَّيءِ في القلب أوِ القول، والذِّكرُ قد يكون عن نسيانٍ، وقد يكون لا عن نسيانٍ بل عن إدامةِ حفظٍ، والتَّذْكِرَةُ: ما يُتذكَّرُ به الشَّيءُ، أو تُستذكَرُ به الحاجةُ، وهو أعمُّ منَ الدِّلالة والأمارة، وكثيرٌ من صيَغ (التَّذكير) و(التَّذكُّر) تصلحُ لِما هو ضدُّ النّسيان ولمعنى الوعظِ وهو منه؛ لأنَّه إذا تذكَّر قد يزدجرُ، فيخشى الوقوعَ في الخطأ.

4) ﴿يَخۡشَىٰ﴾: الخشيةُ خوفٌ يشوبه تعظيمٌ وإجلالٌ وتوقيرٌ لمن يخشاه، وأكثرُ ما يكون ذلك عن علمٍ بما يُخشى منه، ولذلك خُصَّ العلماءُ بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، وفي الخشيةِ معنى التَّنبُّه للخاشي منَ الذي يخشاه، وكلُّ ما في القرآن من مادَّة الخشيةِ؛ فهو بمعنى الخوفِ المَشوبِ بالتَّعظيمِ والتَّنبُّه لأمرٍ أو أمورٍ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

القرآنُ سبيلٌ للسّعادةِ والرَّاحةِ لمن ينتفعُ منه

جاءتِ الآيةُ تسليَةً لرسول الله ﷺ عمَّا كان يُلاقيه من جهة المشركين منَ التَّعب والأذى، فيقول الله تعالى: ما أنزلنا عليك - يا محمَّد ﷺ - القرآنَ لِنكلِّفك ما لا طاقةَ لك به منَ العمل، ولِتَتْعَبَ بالمبالغة في مكابدةِ الشّدائدِ في مقاولة العُتاةِ وفرْطِ التأسُّف على كفرهم به والتَّحسُّرِ على أن يؤمنوا، ما أنزلنا عليك هذا القرآنَ إلَّا

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شقو).
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خشيَ).

لتبلِّغَ، وتذكِّرَ من يخشى اللّه، فيتَّقيَه بأداء فرائض ربِّه واجتناب محارمِه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ النَّفي بـ﴿مَآ﴾:

لمَّا كان (ما فعل) نفيًا لـ(لَقد فعل)[2]؛ دلَّ النَّفيُ في قولِه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾ على أنَّ قولًا قد قيل بأنَّ القرآنَ أورثَ المشقَّةَ لرسولِ اللّه ﷺ، كما ورد أنَّ قريشًا لمَّا نظرت إلى عيشِ رسول اللّه ﷺ وشظَفِه وكثرةِ عبادتِه؛ قالت: (إنَّ محمدًا ﷺ مع ربِّه في شقاء)[3]، فكان قولُهم بمنزلةِ أن يقال: (لَقد أشقاكَ نزولُ القرآن)، على التّوكيد باللّام الموطِّئة للقسم.

القرآن سبيل السعادة في الدنيا والآخرة للنبيّ وللمؤمنين

أو يقال: لمَّا كان تعبُ رسولِ اللّه ﷺ وجهدُه في تبليغ الدَّعوة والتَّوحيد بمنزلةِ أن يقال له: (لقد أشقاك نزولُ القرآن بفرطِ تأسُّفك عليهم وعلى كفرِهم وعنادِهم، وتحسُّرِك على أن يؤمنوا)؛ جاء النَّفيُ بـ﴿مَآ﴾، وبالجملة فإنَّ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ ردٌّ على ما قد يُتوهَّمُ من أنَّ القرآن فيه شقاءٌ لرسولِ اللّه ﷺ ولمن يتَّبعُه منَ المؤمنين.

بلاغةُ النَّفي في قولِه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾:

القرآنُ لا شقاءَ فيه ولا شقاءَ للعاملين به

لمَّا وقع الفعلُ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ في سياق النَّفي في قولِه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾، وكان الفعلُ بمنزلة الاسمِ النَّكرةِ، وكان نفيُ الإنزالِ منصبًّا على قيدِه، وهو ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾؛ اقتضى عمومَ مدلولِ الفعل مع قيدِه، ليفيدَ نفيَ عمومِ كلِّ إنزالٍ على رسولِ اللّه ﷺ فيه شقاءٌ له، ليلزمَ منه نفيُ كلِّ شقاءٍ يتعلَّق بالمنزَّل، أَيْ: نفيُ جَميعِ

(1) ابن جرير، جامع البيان، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 3.
(2) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 255، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 37.

أَنْواعِ الشَّقاءِ، فلا يَكونُ إنْزالُ القُرْآنِ سَبَبًا في شَيْءٍ مِنَ الشَّقاءِ لِلرَّسولِ ﷺ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالإنزال دونَ التَّنزيل:

نفيُ الشَّقاءِ عن عمومِ القرآنِ يفيدُ أنَّ السَّعادةَ في عمومِ سوَرِه وآياتِه

عبَّر بالإنزال دون التنزيل؛ لأنَّ الإنزالَ يكون دفعةً واحدةً والتَّنزيلَ يكونُ بالتَّدريجِ وعلى دفعاتٍ، فآذن التَّعبيرُ أنَّ القرآنَ كلَّه لم ينزلْ على رسولِ اللّه ﷺ ليشقَى به، ولو قال: (ما نزَّلنا)؛ لاحتمل أن يكون الحكمُ، وهو نفيُ الإنزال لأجلِ الشَّقاء مخصوصًا بما نُزِّل فعلًا، وأمَّا ما سيُنَزَّلُ؛ فقد يكون مُتعِبًا، ويلقَى منه رسولُ اللّه ﷺ الشّقاءَ به، فلمَّا أراد نفيَ الشَّقاءِ عن عمومِ القرآن؛ قال: ﴿أَنزَلْنَا﴾.

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿أَنزَلْنَا﴾:

مِن إعجازِ القرآنِ الإخبارُ عن المستقبلِ بنزولِه كلِّه كاملًا

لَمَّا كانت السّورةُ مكّيَّةً بالإجماع أو على قولِ جمهور المفسِّرين، وهي ليست آخرَ سوَرِ القرآن نزولًا بالإجماع قطعًا كان التَّعبيرُ بصيغة الفعلِ الماضي لتنزيلِ ما سيقعُ منزلةَ المتحقَّقِ الوقوعِ؛ للإيذانِ بالقطعِ في أنَّ القرآن سينزلُ كاملًا على رسولِ اللّه ﷺ، ففيه إشعارٌ بالإعجازِ بالإخبار عنِ المستقبل.

فائدةُ إسنادِ الإنزالِ إلى ضميرِ العظمة:

وجوبُ تعظيمِ القرآنِ لأنّ من أنزله له العظمةُ الكاملةُ

لَمَّا أسند الفعل ﴿أَنزَلْنَا﴾ إلى ضمير العظمة؛ أفاد أنَّ إنزالَ القرآن لا يقدر عليه إلَّا اللّهُ الملكُ المُطاعُ، وفيه تشريفٌ للقرآنِ وتعظيمٌ له ولإنزالِه، فيُشعر التَّعبير بوجوب تعظيمِه والعنايةِ به؛ لأنّ من أنزله له العظمةُ الكاملةُ.

نُكتةُ تعديةِ الإنزال بـ(عَلى):

عُبِّرَ بحرف الجر (على) الذي هو لِلاستعلاء للإيذانِ بعلوِّ مكانةِ القرآن وشرف المنزَّل عليه ﷺ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 185.

نُكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المفعولِ:

إفادةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ الإيجازَ والعنايةَ والتَّخصيصَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على المفعول ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ لإظهار الاهتمامِ برسول الله ﷺ والعنايةِ به، ولإفادة تخصيصِ إنزالِ القرآن على رسولِ الله ﷺ، وتنحلُّ جملةُ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ إلى جُملتَين من حيث المعنَى، أي: (ما أنزلنا القرآنَ إلَّا عليك، وما أنزلناه عليك لتشقَى)، فأفاد تقديمُ ﴿عَلَيۡكَ﴾ الإيجازَ مع إفادتِه العنايةَ والتَّخصيصَ.

بلاغةُ الإدماجِ في إنزالِ القرآن:

سَعدَ رسولُ الله ﷺ بنزولِ القرآن فأراد إسعادَ البشريّة كلِّها به

لَمَّا نفَى أن يكون إنزالُ القرآن لأجل الشَّقاء؛ كان تخصيص الإنزالِ على رسولِ الله ﷺ منفيًّا عنه وصف الشَّقاءِ، ليفيدَ الإدماجَ بتضمين الكلام جلالةَ قَدْر المُنزَل والمُنزَل عليه والتَّنويهَ بأنَّ القرآنَ أُنزِلَ على رسولِ الله ﷺ، وأنَّه هو الذي جاء به، وزاد الأمرَ تقريرًا بقولِه: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾، كما سيأتي.

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡكَ﴾:

الإقبالُ في الخطابِ تسليةٌ للمخاطَبِ وملاطفةٌ له

لَمَّا عُبِّرَ بضمير الخطاب؛ أفاد أنَّ الكلامَ على وجه مخاطبةِ الله لرسولِه ﷺ، ففيه إشعارٌ بالإقبالِ؛ ليفيدَ الخطابُ تسليةَ الرَّسول ﷺ وملاطفتَه لِما يلقَى منَ المشركين منَ الأذى والعنادِ على كفرِهم وتكذيبِهم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾:

القرآنُ الكريمُ جمعَ كلَّ معاني الكتبِ السَّماويَّةِ السَّابقةِ وزادَ عليها

عبَّر بالاسمِ العلَمِ على الكتابِ المنزَّل على سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ للإشعار بخَصوصيَّةِ المنزَّل، وأنَّه قد جمع كلَّ معاني ما في الكتبِ السَّالفةِ منَ الأحكام أصولًا وفروعًا، والمواعظِ والرَّقائقِ، والمعارفِ والآدابِ، وأخبارِ الأولين والآخرين، ومصالحِ الدَّارين، وزيادتِه عليها بما شاء الله؛ لأنَّ كثرةَ الأمَّة على قدرِ جلالة الكتابِ، فهو

أعظمُ الكتب والجامعُ لكلّ خيرٍ، والدَّافعُ لكلّ ضيرٍ، وهو الذي يسّرناه بلسانك[1].

معنَى اللَّامِ في ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾:

الشّقاءُ كلُّ الشّقاء في إعراض المشركين عن هدايات القرآن

عبَّرَ بلام التَّعليلِ دون أن يقول: (لأن تشقى)؛ للإيذانِ بأنَّ الشَّقاءَ لم يكن واقعًا وللنَّصِّ على أنَّ إنزال القرآن عليك ليس لأجل أن تشقَى به، وللإشعارِ بأنَّ مآلَ ما كان يحصلُ لرسولِ الله ﷺ منَ المبالغة في التَّبليغ وشدَّةِ أسفِه وحزنِه من إعراضِ قومِه عنِ القرآن والإيمانِ هو الشَّقاءُ، ولو قيل: (لأن تشقى)؛ لأفاد أنَّ الشقاءَ قد وقعَ، وهو لا يناسبُ نزولَ القرآن، وليس له صلةٌ به[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾:

إنزالُ القرآن سعادةٌ للمؤمنين الذين يَخشون ربَّهم ويَخافون عقابَه

لَمَّا كان الشَّقاءُ هنا بمعنى التَّعبِ الشّديد والعناءِ، وكان نفيُه لازمًا لإفادة ضدِّه؛ أفاد التَّعبيرُ بـ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ نفيَ أن يكون إنزالُ القرآن مورِثًا أيَّ نوعٍ من أنواعِ التَّعب الشَّديد والعناء، ليشملَ التَّعبَ الجسديَّ والنَّفسيَّ، وأفاد بلازمِه أنَّ إنزالَه سعادةٌ للمؤمنين الذين يَخشون ربَّهم، ويَخافون عقابَه.

بلاغةُ حذْفِ متعلِّقِ الفعلِ ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾:

نفيُ الشَّقاءِ الرّوحيِّ والجسديِّ عنِ العملِ بالقرآن

لَمَّا حُذفَ متعلِّقُ الفعل ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾؛ أفاد العمومَ، والمعنى: (ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشقى بفرطِ تأسُّفك عليهم وعلى كفرِهم وعنادِهم، وتحسُّرِك على أن يؤمنوا)، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الكهف: 6]، ولتشقَى بحملِ النَّفسِ على الشّدائدِ والمُؤَنِ العظامِ وإجهادِها حتَّى تصلَ إلى حدِّ الشّقاءِ، فيكونَ اللّفظُ قد جمع بين التَّعبِ الرّوحيِّ والجسديِّ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 266.
(2) السامرائي، معاني النحو: 3/ 353.

فائدةُ الجملةِ الخبريّةِ في الآية:

الحثُّ على الاجتهادِ في تبليغِ القرآنِ بشرطِ ألّا يصلَ إلى حدِّ الشَّقاء

في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ يحتملُ المعنى: (ما أنزلنا عليك القرآنَ لتتعبَ في حياتِك ولتتأسَّفَ على كفرِهم ولِتبلغَ منَ الجهد ما بلغتَ)، ففي النَّفي معنى النَّهي، أي: (لا تُتْعِبْ نفسَك تعبًا تصلُ به إلى حدِّ الشّقاءِ في العبادة والدّعوةِ)، فيكونُ المرادُ طلبَ الاجتهادِ في التّبليغ والتَّذكير بألَّا يصلَ إلى حدِّ الشّقاء، أي: (ما عليك إلَّا أن تبلِّغَ، وتذكِّرَ، ولم يَكتبْ عليك أن يؤمنوا لا محالةَ)، ويَحتملُ وجهًا آخر: وهو أنَّ الكفَّارَ لمَّا عيَّروا رسولَ اللّه ﷺ أنَّ اللّه تعالى ألزمَه اجتهادًا بالتَّبليغ والتَّذكرةِ يشقَى به في دنياه بالتّعب والسّهرِ، أو أرادوا أن يُنفِّروه، ويُنفِّروا أتباعَه؛ أنزل اللّه تعالى هذا يبيِّنُ له أنَّ القرآن ليس سببًا للشَّقاء بل هو يَسعدُ به، ويَقتدي به غيرُه، فيكونُ له مثلُ أجورهم، فالشَّقاءُ الذي تتوهَّمونه بالتَّبليغ والعبادةِ هو نعيمُ النَّفس ولا شقاءَ مع ذلك، فيكون هذا أمرًا بالثّبات على التَّبليغ والعبادةِ والازديادِ منهما[1].

نُكتةُ العُدولِ عن نفيِ التَّعب إلى نفيِ الشَّقاءِ:

لم ينزلِ القرآنُ إلاّ لإسعادِ البشريّةِ الحائرةِ

نُكتةُ العُدولِ عن أن يقول: (ما أنزلنا عليك القرآنَ لِتَتعبَ أو لِتَعْنَى) إلى أن يقول: ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ للإشعار بأنَّه أنزل عليه ليسعدَ، فإنَّ نفي الشَّقاء يتبادر منه ثبوتُ ضدِّه، وهو السّعادةُ، وهذا من أسرار البلاغة القرانية؛ فلمَّا نفَى أن يكون إنزالُه للشقاوة؛ دلَّ على أنَّ إنزالَه للسَّعادة وهي جامعةٌ لكلِّ مرادٍ، والمعنى: (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقَى، بل أنزلناه لتسعدَ به في الدُّنيا والآخرةِ)[2].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 267، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 258 - 259، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 22، والشهاب، حاشية على البيضاوي: 6/ 325.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 267، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 258 - 259، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 22، والشهاب، حاشية على البيضاوي: 6/ 325.

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾؛ أفاد هذا الخبرُ بلازمِه أنَّ من لم يؤمنْ بالقرآن، ولم يعملْ به؛ فهو الشَّقيُّ حقًّا، وأنَّ السَّعادةَ لا تكونُ بدون القرآن.

من لم يؤمنْ بالقرآن، ولم يعملْ به، فهو الشَّقيُّ حقًّا

معنَى الاستثناء في ﴿إِلَّا﴾:

للاستثناء في الآية وجهان: **أحدُهما** أن يكونَ تقديرُ الكلام: ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشقى، ما أنزلناه إلا تذكرةً لمن يخشى، فأضمر (ما أنزلناه) لدلالةِ ما قبْله عليه، ليكونَ الاستثناء مُفرَّغًا، ويكونَ استثناءً من أعمِّ أحوالِ تنزيلِ القرآن، أي: ما أنزلناه في أيِّ حالٍ من الأحوالِ ليشمل نفيَ حالِ الشَّقاءِ والتَّعبِ إلَّا تذكرةً لمن يخشَى، فيفيد الاستثناءُ بـ﴿مَآ﴾ و﴿إِلَّا﴾ القصرَ الادِّعائيّ، ويكون من قصرِ الموصوف على الصّفةِ، تعظيمًا لِما في القرآن منَ التَّذكرة بمواعظه وبيانِه، ويكونَ ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ متعلِّقًا بالفعلِ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾ و﴿تَذۡكِرَةً﴾ متعلِّقًا بفعلٍ مضمرٍ تقديرُه: (ما أنزلناه)، دلَّ عليه المذكورُ، **والثَّاني**: أن يكونَ ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةً﴾ متعلِّقًا بالفعل المذكورِ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾، فيكونَ الاستثناءُ منقطعًا؛ لأنَّ التّذكرةَ ليست منَ الشَّقاوة في شيءٍ، لاختلاف جنسِ التَّذكرة عن جنس الشّقاوة، فلا يكون قولُه: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾، استثناءً لشيءٍ من قوله: ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾، والمعنى: (ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشقى، لكن أنزلناه تذكرةً لمن يخشى)، فيكونُ ﴿تَذۡكِرَةً﴾ متعلِّقًا بالفعل ﴿أَنزَلۡنَا﴾ الذي دلَّ عليه السّياقُ، ولا يكونُ في الكلام قصرٌ، فإن قيل: مَنِ المُذَكِّرُ؟ فجوابُه: أنَّه على الوجه الأول، - أي الاستثناءُ مفرّغ - : يكونُ المذكِّر هو اللهَ تعالى المنزِّلُ القرآنَ، وعلى الوجه الثاني، - أي الاستثناءُ منقطع - : يشملُ المُنَزِّلَ، وهو الله جلَّ ذكرُه، والمُنَزَّلَ عليه، وهو رسولُ اللهِ محمَّدٌ ﷺ[1].

تنوُّعُ وجهَي الاستثناء يقتضي تنوُّعَ المعنَى

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 174، والواحدي، البسيط: 14/ 352، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 7، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 399.

التَّوجيه النَّحويُّ لقوله: ﴿تَذْكِرَةً﴾:

مَـــنْ يـخـشَى الله يـداومْ على قـــراءة الـقـرآنِ واسـتـحـضـارِ معانيه

يحتمل أن يكون قولُه: ﴿تَذْكِرَةً﴾ مفعولًا لأجلِه للفعل ﴿أَنزَلْنَا﴾ المقدَّرِ، أي: ما أنزلناه إلَّا تذكرةً، أو لكنْ أنزلناه تذكرةً، وفائدةُ ذكرِ الغاية من تنزيلِ القرآن بيانُ أهميَّةِ القرآن ليكونَ تذكرةً للمؤمنين، ولمن يخشى اللَّه تعالى، بالمداومةِ على تذكُّره بقراءتِه واستحضار معانيه، وذهب بعضُهم إلى أنَّه مَصْدَرٌ في موضع الحالِ من ضميرِ الفعل المقدَّر (أنزلناه)، أي: أنزلنا القرآن حالَ كونِه مذكِّرًا، وعبَّر بصيغةِ المصدر للمبالغةِ، فكأنَّ القرآن عينُ التَّذكرة، أو يكونُ حالًا منَ الكاف في عليك، ليكون المُذَكَّرُ هو رسولُ اللَّه ﷺ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿تَذْكِرَةً﴾:

التَّوْحيدُ مُسْتَقِرٌّ فـي الـفِـطْـرَةِ والإشْـراكُ مُنافٍ لَها

لَمَّا كان لفظُ التَّذكرةِ يفيدُ خطورَ الشَّيء بعدَ نسيانِه وإدامةَ حفظِه والوعظَ به؛ عبَّرَ بلفظ ﴿تَذْكِرَةً﴾ للإشعار بأنَّ اللَّه تعالى أنزل القرآن ليذكِّر النَّاسيَ بما استقرَّ في فطرتِه منَ التَّوحيدِ، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّ التَّوْحيدَ مُسْتَقِرٌّ في الفِطْرَةِ، والإشْراكُ مُنافٍ لَها، فالدَّعْوَةُ إلى الإسْلامِ تَذْكيرٌ لما في الفِطْرَةِ أَوْ تَذْكيرٌ لِمِلَّةِ إبْراهيمَ عليه السلام[2].

معنَى اللَّام في ﴿لِّمَن﴾:

مـــن يـخـشَى الله هو المُنتفعُ بالقرآنِ

تحتملُ اللَّام أن تكونَ للاختصاص، وخُصَّ الخاشي بالتَّذكرةِ، وإن كان الإنذارُ والتَّبليغُ للكلِّ؛ لأنَّ الخاشيَ هو المنتفعُ بالتَّذكير بالقرآن، وهو كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: 45]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: 45]، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: 11]، فيكونُ من باب تنزيلِ غيرِ المنتفعِ بالتَّذكرة بالقرآن منزلةَ العدمِ، وظاهرُ كلامِ الزَّمخشري أنَّ اللَّام للعاقبة، أي: هو تذكرةٌ لمن يؤول أمرُه

(1) العكبري، التبيان: 2/ 884، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 22، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 311.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 185.

إلى الخشية؛ لأنَّ القرآن تذكيرٌ للنَّاس كلِّهم الخاشي وغيرِ الخاشي، وخُصَّ الخاشي؛ لأنَّه المنتفعُ به[1].

معنى ﴿لِّمَن﴾:

يفيدُ الاسمُ الموصولُ العمومَ لكلِّ من يخشى، فيَدْخُلُ في العموم الرَّسولُ ﷺ دخولًا أوَّليًّا؛ لِأَنَّهُ في الخَشْيَةِ والتَّذْكِرَةِ بِالقُرْآنِ فوْقَ الكُلِّ، فيكونُ ذكرُ لفظِ العموم إيماءً إلى كثرة الخاشين في هذه الأمَّةِ[2].

من نعمِ الله على أمَّةِ سيِّدنا محمَّدٍ كثرةُ الخاشين فيها

دلالةُ لفظِ ﴿يَخْشَىٰ﴾:

قد يقالُ: إذا كانت الخشيةُ حاصلةً؛ فما فائدةُ أن يكون القرآنُ مذكِّرًا لمن يخشى؟ وجوابُه: أنَّ المرادَ منَ الخشية المُسْتَعِدُّ لِلتَّأَمُّلِ والنَّظَرِ في صِحَّةِ الدّين، وهوَ كُلُّ مَنْ يُفَكِّرُ لِلنَّجاةِ في العاقِبَةِ، فالخَشْيَةُ هُنا مُسْتَعْمَلَةٌ في المَعْنَى العَرَبِيِّ الأَصْلِيِّ[3]، ويكونُ القرآن حينئذٍ نافعًا في تحصيلِ الخشيةِ التي هي منَ الإيمانِ، أو أنَّ المرادَ من يؤولُ أمرُه إلى الخشيةِ، كما ذهب إليه الزَّمخشريُّ في توجيه أن تكونَ اللَّامُ للعاقبة في قولِه: ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

لا خشيةَ نافعةٌ يومَ القيامةِ من غير انتفاعٍ بالقرآن

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَخْشَىٰ﴾:

عبَّر بصيغة المضارع لإفادةِ الحثِّ على استمرارِ الخشية وتجدُّدِها حالًا فحالًا؛ لأنَّها أمارةُ الانتفاعِ بالقرآن.

استمرارُ الخشيةِ وتجدّدُها دليلُ الانتفاعِ بالقرآن

بلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَخْشَىٰ﴾:

يحتملُ أن يكون حذفُ المفعول لإفادة العموم، بمعنى أنَّ القرآن تذكرةٌ لمن يخشى الله، ويخشى عقابَه، أي: يخشى كلَّ ما ينبغي الخشيةُ منه، أو يكون المفعولُ مقصودًا معلومًا، لجلائه ووضوحِه، أي: (يخشى الله)، وقد حُذفَ لدلالة السّياق عليه، كما يحتملُ أن

حذفُ المفعولِ لتكثير المعنَى مع مُراعاةِ الفاصلةِ

(1) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 1391، والزمخشري، الكشاف: 3/ 51، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 37، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 7، والشهاب، حاشية على البيضاوي: 6/ 327.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 7.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 186.

يكون الحذفُ لإثبات معنَى الخشيةِ في نفسِها للخاشي، أي: إنَّ اللّه تعالى أنزل القرآن تذكرةً لمن هو من شأنِه أن يكونَ خاشيًا، أو أنزلَه تذكرةً لمن لا يكونُ منه إلَّا الخشيةُ، كما أنَّ في حذف المفعولِ إيجازًا ورعايةً للفاصلةِ.

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ لمَّا جاء الكلامُ بالقصر على أنَّه تعالى ما أنزل القرآنَ إلَّا تذكرةً لمن يخشى، أوِ المعنى: (ما أنزلناه لتشقَى لكن تذكرةً لمن يخشى)، أفادَ بلازمِه أمرين: **أحدُهما:** التَّنويهُ بِشَأْنِ المُؤْمِنينَ الَّذينَ آمَنوا بِأَنَّهُم كانوا مِنْ أَهْلِ الخَشْيَةِ، ولَوْلا ذَلِكَ؛ لَما ادَّكَروا بِالقُرْآنِ[1]، **والثَّاني:** نفيُ أصلِ الخشيةِ وحقيقتِها عمَّن لم ينتفع بالقرآن، ولم يعملْ به.

مَـنْ لـم يـؤمـنْ بـالـقـرآن ولـم يـنـتـفـعْ بـه لا خشيةَ له وإنِ ادَّعاها

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضَّنك والشَّقاء:

الضَّنكُ هو الضّيقُ والشِّدّةُ مطلقًا، وكلُّ ما ضاقَ؛ فهو ضَنْكٌ، ومنه ضَنَكَتْ عيشتُه، أي: ضاقت، وأمَّا الشَّقاءُ؛ فهو ضدُّ السّعادة، ويُعبَّر به عنِ التَّعب الشَّديد والعناءِ؛ ليشمل الشَّقاءَ الجسديَّ والرّوحيَّ، وقد يكونُ الشَّقاء لضنكِ العيش أو لغيرِه، فالشَّقاء أعمُّ منَ الضَّنك، والضدُّ بالضِّد كذلك، أي: السَّعادة أعمُّ منَ السَّعة في العيش[2].

الـشَّـقـاءُ يـعـمُّ الـرّوحَ والجسدَ والضَّنكُ مختصٌّ بالجسدِ

الخشية والخوف:

الخوفُ: فراغُ باطنٍ قريبٌ من الرُّعْب والفَرَق، وأمَّا الخشيةُ؛ ففيها استشعارُ النَّفس حِدَّةً تقعُ لا مَهرَبَ منها؛ إذا اسْتوجِبَت، والخشيةُ: خوف يشوبُه تعظيمٌ، وفي الخشية معنى التَّنبُّه للخاشي منَ الذي يخشاه، ففي الخوف تتألَّم النّفسُ منَ العقاب المُتوقَّع،

الخوفُ أعمُّ منَ الخشيةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 184.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شقي، ضنك).

والخشيةُ حالةٌ تحصلُ عند الشّعورِ بعظمةِ الذي يُخشى منه، كما أنَّ الخوفَ يتعلَّقُ بمن يفعلُ المكروه، وبما لا يكونُ منه مكروه، تقول: خِفتُ زيدًا، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النَّحل: 50]، وتقول: خِفتُ المرضَ، والمرضُ لا يكونُ منه مكروهٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرّعد: 21]، والخشيةُ تتعلَّقُ بمن يفعلُ المكروهَ، فيقال: خشيتُ اللّه، ولا يقال: خشيتُ عقابَ اللّه، ويقال: خشيت زيدًا، ولا يقال: خشيت ذهابَ زيدٍ، ولا يسمَّى الخوفُ من نفس المكروه خشيةً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: 21]، فعلَّق الخشيةَ به سبحانَه والخوفَ بسوءِ الحساب، فالخوفُ أعمُّ منَ الخشية[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 241.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»